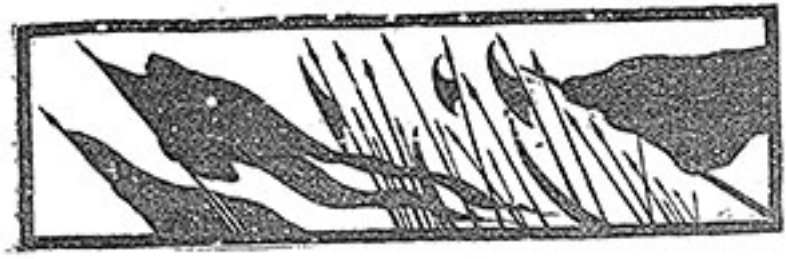

رايات الدول

٣ — راية الدولة العثمانية

بقلم محمد المحيسن

***

لكل دولة علامة تتميز بها عن سواها وعلم تعرف به بين شارات الامم الاخرى . وللدولة العثمانية علامة خارقة يسميها الاتراك « آرماي همايون » وهي مجموعة ما يستعمله الجندي العثماني من الاسلحة النارية والجارحة واوسمة الدولة الرفيعة كوسام « خاندان آل عثمان وغيره » فترى هذه الشارة كشكة مدججة بالسيوف والخناجر والاطباز والرماح والحراب والمدافع والطبنجات والبنادق واما الاوسمة فأنها مدلاة من جانبيها الاسفلين وفي منتصفها الطغرآء الهمايونية التي هي كناية عن اسم السلطان وكلمتي دعاء واجلال له .

فالشارة الهمايونية عند الاتراك كصورة النسر عند المانيا والولايات المتحدة ، وكصورة الاسد عند بريطانيا او بلاد فارس ، بيد ان احترام

العثمانيين لهذه العلامة واكتراثهم بها ليستا بدرجة ما هما عليه عند الالمان والانكليز ، حتى ان اغلب العثمانيين لا يعلمون ماذا تعني تلك الصورة ، وما الغاية من اتخاذها · ولو لم يكن الموضوع موضوع الرايات — لا العلامات — لكنت توسعت بوصف هذه العلامة وتاريخها وما طرأ عليها من التحسين والزيادة الى ان وصلت الى شكلها الحالي · ولا اظن ان قراء الفنون يجهلون الشارة السلطانية العثمانية ، ولذلك فلندعها ولنعد للبحث في العلم العثماني ولنأتِ بنبذة من تاريخه

ان الراية العثمانية التي تستعملها دولة بني عثمان والدول الاسلامية الاخرى — كأفغانستان ومراكش ومصر — لهي جميلة المنظر من حيث مشابهة اجزائها جرمين من اجرام الطبيعة البهية المنظر ، فوجود الهلال الناصع الوضاح والنجمة الزهراء المتربعة امامه في بقعة حمراء لمما يشير الى حسن ذوق مبتدع تلك الراية · ولكن كيف ابتدع الاتراك تلك الراية ، وهل هي شارة اسلامية قديمة استعملت قبل العثمانيين ، أو هل هي بدعة واختراع تركي بعد انقراض الدولة العباسية وبقية الدول الصغيرة من عربية وغير عربية ؟

ان المتقب في تاريخ العرب لا يعثر على راية بهذا الشكل ابداً من نشوء الدعوة الاحمدية الى دور طوائف الملوك ، اذ ان راية النبي العربي كانت خضراء وراية بني امية التي رفرفت فوق جبال بيرينه من الغرب وكادت تشرف على مرتفعات هيمالايا من الشرق كانت بيضاء ، وراية بني العباس

سوداء . الا ان المأمون لما تظاهر بالميل الى اهل البيت ابدلها بخضراء واعتاد نفسه عَلَى ارتداء الثياب الخضر فلم يرق ذلك لغيره من الاسرة العباسية فأعادوا رايتهم السوداء وظلوا ينشرونها الى ان اعتم عليهم الزمن بسواده المدلهم فنكست تلك الراية عَلَى اهلها وذهبت واياهم الى حيث العدم الابدي.

واما طوائف الملوك وان كانوا لا يحصى عددهم ولا تقدر اعلامهم بمقدار فيما بين القرنين الثالث والسادس الهجريين ، فلم ينبئنا التاريخ عن استعمال احدهم راية الهلال والنجم ، بل كان لكل منهم ذوق في انتقاء رايته حتى كان الانسان لا يرى علماً يشبه الاخر . فمن الامراء من كان يرفع علماً من الحرير الابيض ومنهم من كان يطرز رايته بآيات من القرآن ذات حروف ذهبية او فضية . وغاية القول ان رايات طوائف الملوك كانت شارات حقيقية لتنافر قلوبهم وتشتت مقاصدهم وآرائهم

قلنا اننا لم نعثر عَلَى راية الهلال والنجم بين رايات الدول العربية القديمة ، غير اني استطرد القول آتياً ببعض دلائل تاريخية تشير الى ان العرب كانوا استحسنوا هذه الصورة الجميلة فأودعوها في بعض مخلفاتهم القديمة ، الا ان ذلك لا يعني انهم اتخذوها راية لهم في زمن من الازمان . فلقد عثر المؤرخون الباحثون عن الاثار العتيقة عَلَى بعض مسكوكات الدولة الاموية فوجدوا حواشي النقود التي ضربها معاوية ابن ابي سفيان مزينة بصور اهلة ونجوم صغيرة مركوزة في منتصف تلك الاهلة . ولكن مهما وجد من الامارات فهي لا تكفي لنفي نسبة ابداع راية النجم والهلال للاتراك نفسهم

واليك ما هو جدير بالذكر من تاريخ ايجاد العلم العثماني الحاضر وبعض ما سطره مؤرخو الاتراك بذلك

قيل ان مبدع الراية العثمانية هو السلطان مراد الاول المكنى بخداوندكار وقد ينسب مؤرخو الاتراك القدماء — كنعيما ووصفي — ذلك الايجاد الى خرافة ربما كانت مبنية على حقيقة وهي « انه بينما كان السلطان مراد خداوندكار احد عظماء سلاطين الترك يتمشى ذات ليلة في ميدان القتال في سهل قوصوه ، وقد كان تلك الليلة منشرح الصدر ، فرحاً مما اتاه الله من النصر في معركة قوصوه الشهيرة التي حدثت بينه وبين ملوك البلقان الذين كانوا تحت زعامة الملك لازار الصربي في نهار تلك الليلة حانت منه التفاتة الى احد جانبيه واذا بنظره قد وقع على غدير صغير مزجت ماءه بشيء من النجيع المتدفق ذلك النهار العصيب من رقاب الاعداء ، وقد انعكست على سطح الغدير صورة الهلال الحديث الطلعة والنجمة التي تخلق معه فأثر هذا المشهد الطبيعي الجميل — ان جازت نسبة الجمال الى الدم البشري — في نفس السلطان مراد خداوندكار المملوء عجباً بانتصاراته على ملوك اوربا الشرقية ، فاراد ان يحيي ذكر ملحمة قوصوه العظيمة ، فلم يجد وسيلة أفضل من اتخاذه علماً يماثل بلونه ذلك المشهد الطبيعي ومن ذلك الوقت ولد الهلال العثماني .....

ومما يجدر بالذكر في هذه المناسبة هو ان السلطان مراد خداوندكار مبدع العلم العثماني قد قتل في هذه الصحراء الالبانية الواسعة بينما كان

يتفقد الجرحى وليفرقهم عن القتال بعد انتهاء معركة قوصوه العظيمة المار ذكرها . قُتل بيد جريح صربي يدعى « ميلوش قابلويش » فقد اقترب ميلوش من ركاب السلطان وتظاهر بالخشوع لديه والرغبة باشم اذياله ثم غافله بطعنة من مديته وحاول الفرار وقتل نفراً من حرس الركاب السلطاني ، الا انه لم يفز بالخلاص وقتل مبدلاً افراح العثمانيين باتراح في يوم واحد . ولا غروَ فكم غدر الصربيون بملوك وامراء لاجل اوطانهم وها آخر ما فعلوه من هذا القبيل ايقاع احدهم بولي عهد النمسا واضرامه ناراً لم ترَ البشرية اشد لهباً منها .

هذه هي الخرافة التاريخية — ومعظم حوادث التاريخ خرافات — الواصفة كيفية ايجاد الهلال العثماني . غير ان ما يعتبره المؤرخون حقيقة راهنة هو امر اتخاذ الراية العثمانية الحالية في دور السلطان مراد خداوندكار فقد كاد مؤرخو الاتراك ان يجمعوا عَلَى ذلك وقد ذكر كامل باشا الصدر الاعظم الاسبق الذي توفي منذ سنتين في تاريخه العثماني المسمى « تاريخ سياسي » ان الراية العثمانية اوجدت في دور السلطان مراد خداوندكار ونشرت سنة ٧٧٨ الهجرية فوق رؤوس الانكشارية اذ ارتأى السلطان المشار اليه ان يميز راية الدولة العثمانية عن رايات الدول الاسلامية السالفة فأختارها قانية حمراء . واما قبل ذلك التاريخ فان سلفيه — عثمان واورخان — كانا ينشران فوق رؤوس جيوشهما اللواء السلجوقي الذي اهداه السلطان علاء الدين السلجوقي ملك قونيه الى الامير عثمان مكافأة له عَلَى خدماته

لبني سلجوق واعترافاً له بالاستقلال المبدأي · وكان ذاك العلم كأعلام طوائف الملوك ، قطعة من قماش مكتوب عليها بعض ادعية واحاديث ، فاتخذه عثمان علماً خاصاً « لقبيلته » واقتدى ابنه اورخان الى ان جآء حفيده مراد خداوندكار واتخذ الحمرة لرايته رمزاً ولم اتحقق جيداً فيما اذا كان مراد خداوندكار ابتدع اللون الاحمر فقط ام كان مبتدع النجمة والهلال ايضاً الامر الذي لا يزال من معميات التاريخ العثماني العديدة ···

محمد المحيسن

قيل للعتابي — أي جلسائك أحب اليك ؟ فقال من ابصق في وجهه ولا يغضب · فقيل له — ومن هو ؟ قال — الحائط

· · · · · · ·

قال عبدالله بن عمر بن العاص — من سُئل عما لا يدري فقال لا ادري فقد أحرز نصف العلم ·

· · · · · · ·

قالَ الحسن البصري — لو كان للناس كلهم عقول لخربت الدنيا

﴿ امرأة فوطيفار ﴾
* للمصور كوكونيه *